القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

اليتيم

٦

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألَمْ يَجدْكَ يَتيمًا فآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث ﴾ .

(قرآن کریم)

١

رأتْ آمِنـةُ أن تخـرجَ بابنِهـا محمَّـد إلى يَـثْرِب (المدينة) ، ليزورَ أخوالَه من بنـى النَّجَّار ؛ فراحتْ تستعِدُّ لرِحلةٍ طويلـة ، فـى الصَّحْـراءِ المترامِيـة ، فـأمرت أُمَّ أيمـن ، وكـانت جاريـةً ورِثها محمـدٌ عـن أبيه ، أن تُعِدَّ طعاما ، وأن تُجَهِّـزَ جمـلا ، تضـع فوقَه هَوْدجًا يحميهم منَ الشمسِ الحاميةِ فى الطريق .

وانتظـرت آمنـةُ حتـى وجـدتْ قافلـةً ذاهبـةً إلى المدينة ، وأخذت معهـا محمَّـدًا وأمَّ أيمـن ، وانضمـت إلى الرَّكْـب ، واستمرتِ القافلـةُ فـى سـيرِها حتـى بلغتِ المدينة ، فذهبت آمنةُ وابنُها إلى بنـى النجـار ، وتعـرَّف محمـدٌ بأخوالِـه ، ومكـث عندَهـم شـهرا ، يتمتَّعُ بجوِّ المدينةِ اللَّطيف ، ويسـمعُ خَريـرَ المـاء فـى الحُقُول ، وينعَـمُ بـالحدائقِ والزُّهـور ، فقـد نشـأ فـى

مكَّة ، حيث الحرُّ الشديد ، والفضاءُ الواسعُ كبحرِ هائل من الرِّمال .

وفى المدينةِ تعلَّم محمدٌ العَوْم ، ولعِبَ مع أبناء أخواله . ولما انتهتِ الزِّيارة ، وخرجتِ القافلةُ من يثرب . هبت عاصفةٌ شديدةٌ فى الطريق لم تحتملْها صحَّةُ آمنة . وفى ليلةٍ من الليالى ، ماتت آمنةُ فى الطريق ، ومحمدٌ يذرفُ عليها دمعَه ؛ وحملتها أمُّ أيمنَ إلى قريةِ « الأبواء » ودفنتها بها . واستأنفتِ الجاريةُ والغلامُ اليتيمُ الرِّحلة ؛ وعاد محمدٌ إلى مكة ، والحزن يعتصِر قلبه .

٢

عاش محمدٌ فى رعايةِ جَـدِّه عبـدِ المطلـب ، وكـان جدُّه يُحبُّــه ، ويعطفُ عليـه ، لا يـأكلُ إلاّ إذا أكـلَ معـه ، ولا يخـرجُ إلاّ إذا خـرج معـه ، وكـان يُوضَـع لعبدِ المطَّلبِ فِـراشٌ فـى ظـلِّ الكعبـة ، فكـان أبنـاؤه يجلسـون حـول فِراشـه ذلـك حتـى يخـرجَ إليــه ، لا يجلسُ عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له ، فجاء محمدٌ مـرَّةً وهـو غـلام ، وجلـس عليـه ، فـأخَّره أعمامُـه عنـه ، ورأى عبدُ المطَّلب ذلك منهم ، فقال لهم :

ـ دعوا ابنى ، فواللّه إن له لشأنا .

ثـم أجلسَـه علـى الفـراش ، وراح يمسَــح ظهـرَه بيدِه .

٣

ومرِض عبد المطَّلب ، فلزِمَ فراشَه ، فكان أبناؤه يأتونَ إليه يزورونَه ؛ وكان محمدٌ يقِفُ بالقربِ من سريرِ جَدِّه ، وينظُر إلى وجهِه الذّابل ، فيُحِسُّ حزنا . لقد ماتت أمُّه وتركتْه ، فكفلهُ جَدُّه ، وها هو ذا جدُّه يموت ، فمن يَكفُلُه من بعده ؟

عَرفَ محمدٌ ألمَ اليُتْم ، وسكن قلبه الحُزن ، فأخذ ينظُر إلى جدِّه المريض ، وفى فؤادِه أسىً عميق .

ولَمَحه جدُّه وهو ينظر إليه دامعَ العين ، فتحركت شفقتُه ، فدعاه ، وراح يمسحُ ظهرَه بيدِه فى حَنَان ، ثم أوصى ابنَه أبا طالب أن يكفُلَهُ بعدَه .

ومات عبدُ المطَّلب ، ووقف محمد خلف سريرِه يذرُفُ الدَّمعَ السَّخين ، وحزِنت مكةُ على عبدِ

المطَّلبِ حُزْنا لم تحزَنْه على أحدٍ قبلَه ، وأُغلِقت الأسواق ، فلم تَقُم بمكةَ سوق لموتِه .

وأخذ أبو طالبٍ محمَّدًا اليتيم ، وضمَّه إلى أولاده ، وأحبَّه أبو طالبٍ حبّا فاقَ حبَّه أبناءَه ، فما كان يأكل ألاّ مَعه ، ولا ينامُ إلاّ إلى جنبِه .

٤

قرَيشٌ تستعدُّ لخروج القافلة إلى الشّام ، والإبلُ فى السُّوق محمَّلةً بالبضائع ، والْحَمِيرُ والبِغالُ تغدو وتروح .

وكان على رأس القافلة أبو طالب ، فلما ركِب ناقَته ، واستعدَّ الجميعُ للسَّير ، أمسك مُحمَّدٌ بزمامِ ناقةِ أبى طالب ، وقال :

ــ يا عمَّ ، إلى مَن تَكِلُنى ، ولا أبَ لى ولا أمّ ؟

فرقّ له قلب أبى طالب ، وقال :

- واللّه لأخرُجنَّ به معى ، ولا يفارقُنى ولا أفارقُه أبدا .

ثم أركبَه على الناقةِ خَلْفه ؛ ففرح محمدٌ فرحًا شديدا ، فهو يخرج لأوّل مرَّةٍ من مكة ، ليرى عالما جديدا ، لم تقع عليه عينُه قبل الآن . وسارت القافلة فى الصّحراء أيامًا وليالى ، حتى وصلت إلى سوقِ بُصْرَى ، وهى مكانٌ بشرق الأردُنّ ، وكان يأتى إليه التّجار الرومان ، ليقايضوا العرب ببضائعهم .

وكان بالقربِ من السوق دير ، وكان بذلك الدير راهبٌ اسمُه بَحيرا ، وكانت قوافلُ العربِ تمرُّ بالدير فلا يلتفتُ إليها بَحِيرا ، ولكنَّ هذه القافلَةَ التى بها محمد ، لفتتْ نظَره ، فأرسلَ إلى أبى طالب :

- إنى قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشرَ قُريش ، وأحِبُّ أن تَحضُروهُ كلُّكم : صغيرُكم وكبيرُكم ، وعبدُكم وحرُّكم .

فتعجَّبوا من أمرِه ، وقال رجلٌ منهم :

ـ بَحيرا ، ما كنتَ تصنعُ هذا بنا وكنّا نمرُّ عليكَ كثيرا ، فما شأنُك اليوم ؟

فقال بَحيرا :

ـ صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنَّكُم ضَيْف ، وقد أحبَبْتُ أن أُكرمَكم ، وأصنعَ لكم طعاما ، فتأكلوا منه كلُّكم .

فذهبوا إليه ، وتخلَّف مُحمد ، وجلس وحدَه تحتَ الشَّجرة ، فقال بَحيرا :

ـ يا معشرَ قريش ، لا يتخلَّفْ أحدٌ منكُم عن طعامى .

فقالوا :

ـ يا بَحيرا ما تخلَّفَ عن طعامِك أحدٌ ينبغى له أن يأتيَك ، إلاّ غُلام ، وهو أحدثُ القوم سنّا .

فقال بَحيرا :

ـ فليحضُر هذا الغلامُ معكم ، فما أقبحَ أن تحضُروا ويتخلَّفَ رجلٌ واحد ، مع أنىّ أراهُ من أنفسِكم .

فقال رجل :

ـ واللّاتِ والعُزّى (صنمان كانوا يعبدُونهما) إنَّهُ لُؤمٌ منّا أن يتخلَّفَ ابنُ عبدِ اللّه بن عبد المطَّلب ، عن طعام من بينِنا .

ثمَّ قام إليه ، وجاء به فأجلسَهُ مع القوم .

وجلس محمدٌ إلى جوارِ بَحيرا ، وأقبل بَحيرا عليه يحدِّثه . قال له :

ـ بحقِّ اللّاتِ والعزّى إلاّ ما أخبرتَنى عمّا أسألُك عنه ؟

وكان محمَّدٌ يكرهُ الأصنام ، ولا يعترف باللاّت والعُزَّى وهُبَل ، والأصنام الأخرى التى يعبُدها قومُه ، فقال :

ـ لا تسألْنى باللاّتِ والعُزَّى شيئا ، فواللّه ما أُبغِضُ شيئًا قطُ بغضَهما .

فنظر إليه بَحيرا مدة ، ثم قال :

ـ فباللّه إلاّ ما أخبرتنى عما أسألُك عنه ؟

فقال له محمد :

ـ سلْنى عما بدا لك .

فجعل بَحيرا يسألُه عن أشياءَ من حالِه ، ومن نومِه . فلما فرَغ ، ذهبَ إلى أبى طالب ، وقال له :

ـ ما هذا الغلامُ منك ؟

قال أبو طالب : ابنى !

فقال بَحيرا فى توكيد ؛ لأنه كان يعلمُ أن النَّبىَّ المنتظرَ يشِبُّ يتيما :

ـ ما هو ابنَك ، وما ينبغى لهذا الغلامِ أن يكونَ أبوه حيّا .

قال أبو طالب :

ـ فإنه ابنُ أخى .

ـ فما فعلَ أبوه ؟

قال أبو طالب : مات وأمُّه حبْلَى به .

ـ صدقت ، وما فعلتْ أمُّه ؟

ـ تُوُفِّيت قريبا .

ـ صدقت . فارجع بابنِ أخيك إلا بلادِه ، واحذَرْ عليه اليهود ، فواللّه لئن رأوه ، وعرَفوا منه ما عرَفت ليَقتلنّه .

٥

عاد محمَّدٌ من الشام ، فكان يرعَى غنَم أهله ، يَمضي نهارَه في الفضاء يتأمَّل الدنيا ، وينظُر إلى السَّماء ، فتتفتَّح لهُ أسرارُ الكوْن ، ويحنو على الغنم الضَّعيفة ، فتسكُن قلبَه الرأفة . كانت رعايةُ الغنمِ إعدادًا له لرعايةِ الناس !!

وفي ذاتِ ليلة ، أراد محمَّدٌ أن يَلْهوَ في مكة كما يلهو الفِتيان ؛ كان أغنياءُ مكة يُقيمونَ في بيوتِهم الحَفَلاتِ الصاخبة ، فتُغنّى المغنيات ، وترقص الراقصات . وكان الفِتْيان يذهبون إلى تلك الحفلاتِ ، يُشاهدون الرقص ، ويستمعونَ إلى الغِناء ، فالتفتَ إلى فتىً كان يرعَى معه الغنم ، وقال له :

- احْرُسْ علىَّ غنمى حتى أسمُرَ هذه الليلةَ بمكـة ، كما يسمُرُ الفِتيان .

قال الفتى : نعم .

وراح الصَّبىُّ يحرُسُ غنَمَ محمَّـد ، وذهـب محمَّـد ، حتى إذا بلغَ دُورَ مكة ، سمِع غِنـاءً وصـوتَ دُفـوفٍ ومزامير ، فقال :

- ما هذا ؟

- رجلٌ من قريش تزوَّجَ امرأةً من قريش .

وجلس لينظر ، وإذا بـالنومِ يغلِبـه ؛ فنـامَ دون أن يَرَى أو يسمعَ شيئا ، ومرَّ الليل ، وما أيقظه إلا حـرُّ الشمس ، فقام وعاد إلى غنمِه .

إن اللّه الذى عَصمَه من أن يعبُد الأصنام ، عصمه من أن يلهُو كما يلهو فِتْيانُ قريـش ؛ لأن اللّـه كـان يُعدُّه لأمر عظيم .

٦

قدم رجلٌ إلى مكةَ يبيع بضاعَته ، فاشتراها منه أحدُ أشرافِ قريش ! ولكنه لم يُعطه حقَّه ، فذهب الرَّجُل إلى أشرافِ القوم ، يسألُهم أن يُساعدوه على ردِّ حقِّه ، فرفضوا . فصعد الرجل على جبلِ أبى قُبيس وهو جبلٌ بمكة ، وراح يصيح ، يطلبُ من ينصُرُه . فقام إليه الزُبيرُ بن عبدِ المطَّلب ؛ عمُّ محمد ، وأشرافُ قريش ، ودخلوا دارَ ابن جُدْعان ؛ وكانت دارَ المشورةِ والاحتفالاتِ بمكة ، ودخل محمَّد معهم ، واتَّفقوا على أن يكونوا يدًا واحدة مع المظلومِ على الظالم ، حتى يُردّوا إلى المظلومِ حقَّه .

وساروا إلى الشَّريف ، الذى لم يدفعْ للرَّجلِ ثمنَ بضاعتِه ، وأخذوا منه البضاعةَ ، وردّوها إلى الرجل .

اشترك محمَّد فى هذا الحِلْف الذى أُطْلِقَ عليه حِلفُ الفُضُول ؛ لأنه كان يَكرهُ الظلم ، ولأنه كان ذا عواطفَ نبيلة ، تدفعه إلى مدِّ يدِ المعونةِ إلى المظلوم والمغبون .